أنظمة ممنوعة من التجمد والسقوط

أحمد عمر

وجدَ عصفورًا تجمّد من البرد، وبقي معلقًا في الهواء، بحبل خفي، أو لعله مسنود بعمود لا يُرى. نزلت دمعة على خدّه، وسالت، حزنًا على العصفور، أو لأنّ البرد قريب الحزن، بقية أهله، كأنّه حداد على غيبة الحياة. البرد جلّاد يجلد بسياطٍ لا تُرى، وله خناجر يطعن بها. لا يعقل أمر العصفور، لا بد أنّ للأمر تفسيرًا. تفكّر في أن يختبر أمر ذلك الساحر المغربي الذي كان معلقًا في الهواء، فأمر يده من تحته ومن فوقه، وكان الوقت صيفًا، قال له صديقه، وهما ينظران إلى ذلك المغربي، وهو يجلس في الهواء مصنّما ممسكًا بعصاه: هذا شيطان. البرد شديد، له سلاسل وأغلال. ارتدى سروالين قطنيين، وكنزتين ومعطفًا، ووضع قلنسوة واعتمّ بعمامة، وشدّ رقبته بعصابة صوفية شدًا محكمًا، حتى تحصّن وتكفّن، كأنه موميا، وتصدّى للمبارزة مع البرد المسلّح بآلاف السيوف. نظر إلى الأشجار الخاشعة، الأسيرة، وقال في نفسه إنّ البرد من أقربا، الحزن، إن كانت لهما أم، فأمهما الوحشة.

كان الشارع خاليًا وموحشًا خوفا من البرد المفترس. صدر من منخاريه دخان تنبّأ مسكين، قال إنّ الثلج يحلو مشاعر الشوق، ويعين على النظر في مجاهل النفس، ولم يكن الثلج قد ندف، لكنّ الأرض ابيضّت وشاخت من شدة البرد، ونثرت ملحا على الأرض، قال: إنّ البرد طاغية، ويحكم بقانون الطوارئ. تجلّدت البرك المائية وتصبّرت، واحتبست وراء زجاجها ريحًا مختنقة، حاولت الفرار، فبانت مثل الهالات والالتهابات الجلدية، ووحمات البهاق. قال لصاحبه: هذا ليس سحرًا، إنها خدعة. انظر إلى عصاه، العصا معدنية وتسلك في كمه وتنتهي بكرسي معدني صغير يجلس عليه. العصا الوتد، والرجل يتكسّب بهذه الخدعة، وإنه لعملٌ شاقّ أن يتصبّر المرء يومه جالسًا بلا حراك لا يحكُّ رأسه كأنّه صخرة منصوبة، وكتلة مصبوبة. أصرّ صاحبه: إنه شيطان، وهذا سحر. تراهنا وانتظرا حتى ملّا. فأشفق على صاحبه من الخسران، وعلى نفسه من الانتظار، فحملا متاعهما وتركا المغربي محنّطًا في الهواء، مثل إشارة استفهام.

قال: كيف مات العصفور؟ الطيور كائناتٌ تتحمّل البرودة.

بقيت الدمعة حارّة على خدّه، الدمع فيه مادة مانعة للتجمد، سالت دمعته على خدّه حتى تخللت شعرات لحيته.

وقفت أشواك الحديقة للبرد القائد، تأهبت بأوامر عسكريةٍ مبرمة لا تُنقض، عشبها يتقصف تحت القدم، ويتكسر مثل الزجاج، صوت تحطّمه يشبه وساوس الحصى وأنينها، وكان يتثنّى للنسيم من غير ألحان يومًا. قال لنفسه: ورد الحدائق قصير العمر وشوك البوادي معمّر. وسأل نفسه عن السبب وأجاب: لأنّ الورد يسرف في الجمال وكريم يفرّط في الرائحة، يموت بسرعة، بينما تقتّر الشوكة البخيل على نفسها وتقتصد، فتطول أعمارها. النكتة وردةٌ تموت بعد نطقها بقليل، أما العبرة فهي شوكةٌ تعيش طويلًا. الإنسان ينتقل بين أربعة خرائف: خريفٌ تسقط فيه الأوراق الحمراء من الشجر، وخريف سقوط الأغصان من البرد شتاء، وخريف سقوط السنابل الصفراء صيفاً، وخريف الربيع الذي تسقط فيه الثمار من السكر، وما الولادة إلا خريف حياء المرأة، وما بكاء وليدها إلا ندب لشبابها. إنّ حُزْناً في ساعةِ المَوْتِ أَضْعَافُ سُرُورٍ في ساعةِ الميلادِ.

حزن واحد غلب كتائب السرور. هكذا قضى أبو العلاء في المباراة بينهما.

في الأمثال: الأسى لا ينتسى، قال لنفسه: الحزن فيه مانع تجمد. فهو لا يرقأ. تذكّر عيني ميدوزا السحريتين اللتين كانتا تصخّران من ينظر إليهما، وتمسخانه حجرًا. تذكّر مرة ضابطًا على الحاجز، نظر إليه مهدّدًا، لأنّ «هويته» كانت مكسورة، فتجمّد من نظرته ذعرا، وقال لنفسه: سلالة ميدوزا. قال: العين نبع، فيها مانع تجمّد، لكنها قادرة على التجميد بأشعتها غير السائلة. سأله صديقه: كيف بقي النظام السوري معلقًا في الهواء عشر سنوات، حيًا، لا يسقط ولا يطير، لا بدّ أن أحدا ما زوّده بمانع تجمد. قال: النظام يستند إلى عصا، والعصا تنتهي في كمه إلى كرسي في عباءته، فهو يجلس عليها، مثل ذلك المغربي الذي قلتَ عنه شيطان. سأل: ما تفسير ذلك العصفور المجمّد في الهواء، فلا يسقط ولا يطير. قال: لا بد أنّ لتعلق النظام في الهواء وعدم سقوطه تفسيرًا، لا بد أن ثمة قضيبًا يعكز عليه.

سارق الحكم في بلادنا

عبد الحكيم حيدر

من أهم علاماته واشدّها خطرا على الإطلاق أن يكون دموياً، لأن الدماء التي تخيف الجماهير في أثناء قطاف الرقاب غيلة، أو جلدهم في قاعات الشرطة، أو إعدامهم، هي التي ترهب الجميع، وبذلك يزيد رصيد الخوف في البلاد والقلوب. والخوف يصنع المهابة، حتى وإن كانت كاذبة، وتلك أولى اللبنات التي يحرص عليها خاطف الحكم في بلادنا، ويستدرج الجماهير لها بأي حيلة، حتى بحيلة الإرهاب، حقيقياً كان أو مخططاً له مسبقا بفخاخ منصوبة. ويا حبذا لو كان هناك لحن راقص مع تحية العلم وأغنيات الصباح الطالعة من الريف بالطبع، أو أغنية تحكّ تحت جلد الناس والجماهير أو سمفونية أو حتى أوبرا أو مسرحية، وإن كان هناك فيلم سينمائي لممثلين وممثلات لهم ذلك الرصيد المقبول عند الجماهير في مسلسلات رمضان، فقد وصلت الرسالة على أكمل وجه، رسالة الدم، وقد أخذ بذلك الحاكم الخاطف، ختم الخلاص، مشرعنا مع محبة الجماهير وتشجيعها بالتصفيق والدموع.

أما لو جاء عالم دين جليل حسن الصورة وبليغ في سبك العبارة من بطون التاريخ وقال للحاكم: «اضرب في المليان»، و«كلاب جهنم»، و«ريحتهم نتنة»، فقد اكتمل المعنى من السماء، ولم الشيخ. أما لو جاء إلى الحاكم نفسه حلم مبارك، وأعطاه حاكم سابق، في الحلم، سيفا مباركاً، ومكتوب عليه «بالأحمر كمان»، لون الدم، «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فما على الحاكم إلا أن يمشي في طريقه، طريق الدم، ولا يخاف عقاباً، أي عقاب، فقد اكتملت له صحة «الولاية».

قد تحدُث أمورٌ في العالم، كالانتخابات في أميركا مثلاً، أو حقوق الإنسان، أو كلام الديمقراطية، وكلها أمورٌ معاصرة ومستحدثة في الحكم، وعلى خاطب الحكم في بلادنا أن تكون لديه الردود المختومة والجاهزة والمهذبة في الغرب، خصوصا في أثناء، سفر خاطف الحكم لأي مؤتمر دولي، كي يناقش ويرد على تلك المسائل المستحدثة أمام الصحافة أو وكالات الأنباء، أو الإعلام، والمهم أن يكون ثابتاً وحكيماً وحليماً، وعاطفياً جداً في الردود، والأهم من ذلك كله أن يشتري السلاح بالمليارات، حتى وإن باع جزيرتين أو جبلين أو حتى بقرتين.

أما لو أراد أن يعمّق المشهد عالمية وصهللة، ويرسم للعالم صورا مضيئة عن حكمه، فعليه بالحفلات والمهرجانات السينمائية والمسرح التجريبي وملاطفة نجمات السينما من كبيرات السن والتاريخ المشرف، ولاعبي كرة القدم، وخصوصا في أثناء عودتهم بالكؤوس، أو ذهابهم إلى كأس العالم. وعند ذلك بالطبع لا تنفع التكشيرات، ولا التهديد والوعيد، ولا «سيبوا لي الفكة»، بل خطاب آخر جميل وأنيق مع ندشة في العبارة. ويا حبذا لو كان فيه مقطع من أشعار فاروق جويدة العاطفية. أما الداخل، فله ربٌ يأخذ منه الضرائب. وأما لو بات الأمر ملحا للخارج «بالطبع». فهنا يجب الاستعانة بشركات دعاية بالدولار «ومش خسارة»، كي تتم الرحلة. قطعا ستكون هناك انتقادات من هنا أو هناك من «أهل الشر»، والرد عليهم بالطبع سيكون جاهزاً، فأرشيف الخيانات جاهز، ومن «باعوا أوطانهم بالدولار»، جاهز، و«العملاء والخونة» إلى آخره، ولكل حدث حديث. والمهم أن تكون المشاريع كل يوم، حتى وإن تمت على الورق، أو تركها المقاول ورجل الأعمال، وهرب، كالفنادق، وأوبرايت الصعيد ومزارع الجمبري. ولا خوف أبدا على البنية التحتية كما تقول «قنوات الشر»، أو سقوط البيوت على الفقراء، أو حوادث القطارات، فلذلك كله علاج في 2030، وإعلام يتكفل بالردود. أما لو حدثت أشياء مرعبة أكثر من أن يتوقعها ذلك الحاكم، فالطائرات موجودة، والحبايب هناك كثر، و«تراعيني قبراطيا، أراعيك قبراطين»، و«تشوفني في انتفاضة أشوفك في انتفاضتين».

عن طرابلس ولبنان والنظام الطائفي

حيّان جابر

تشهد مدينة طرابلس اللبنانية منذ أيام حراكا احتجاجيا ذا طابع طبقي، يطغى عليه غضب فقراء المدينة الذين يعانون من أهوال الأزمة الاقتصادية، وتبعات إجراءات تقيد الحركة على أعمالهم اليومية، وبالتالي على عوائدهم المالية، ومن آثار إهمال المدينة خدميا واجتماعيا واقتصاديا على مدار العقود الماضية، قد لا يختلف وضع طرابلس عن أوضاع مدن وبلدات لبنانية عديدة في سياقها العام، مع بعض اختلافات جزئية، لكنها مدينة مختلفة في بعدها الاحتجاجي والثوري، فمنذ انطلاق ثورة 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2019، بالحد الأدنى، تحولت المدينة، بفضل حيويتها وشبابها النابض بالثورة وبالإصرار على التغيير، وخطابها الوطني العابر للطوائف والمناطق، إلى عاصمة الثورة اللبنانية، كما يحلو لأنصار الثورة وصفها منذ مدة طويلة جداً.

لكن وعلى الرغم من الزخم الثوري الذي شهدته شوارع لبنان منذ «17 تشرين»، ومن نجاحات جزئية متحققة في بدايات الحراك الثوري، كإسقاط حكومة سعد الحريري، إلا أننا لمسنا في الأشهر الماضية بوادر لنجاح النظام والمنظومة الطائفية المسيطرة على لبنان في إحباط جمهور الثورة، ودفعهم إلى العزوف عن الحركة الاحتجاجية التي تقلص حجمها ودورها بشكل ملحوظ، على الرغم من توالي المحفزات الثورية. وذلك بفعل عوامل عديدة، يتعلق بعضها بقصر تجربة الحراك المدني اللبناني، مقارنة ببنى الطائفية المجتمعية الراسخة عقودا عديدة مضت وما زالت، كما يعود بعضها إلى منهجية المنظومة الطائفية في تدوير الأزمة، وتفريعها إلى محاور متعدّدة، غالبيتها ذات طابع طائفي، وكأنها صراع نفوذ داخلي، مثل الخلاف العوني - الحريري، والمسيحي - المسيحي ممثلًا بصراع ميشال عون وسمير جعجع والكتائب أحيانا أخرى، وبري - باسيل، والحريري - نصر الله، عبر مناكفات عديدة مستعادة من مرحلة سابقة، والقدرة على إربك الحراك الاحتجاجي والثوري وإدخاله في تفاصيل سياسية يومية لا تمتّ لبرنامج الثورة بأي صلة.

غير أن نجاح المنظومة الطائفية الأبرز يكمن في قدرتها على تفعيل دور المنظومة الأمنية القمعي، وكبح الدور الإعلامي المراقِب والمدقق في كل شاردة وواردة، حيث لعب الإعلام اللبناني، ونسبيا العربي، دورا بارزا في كبح قوى المنظومة المسيطرة القمعية بشقيها، الرسمي والزبائني، نظراً إلى طبيعة لبنان ودور الإعلام فيه محليا وإقليميا، ونسبيا عالميا، والتي سلطت الأضواء والكاميرات على غالبية المظاهر الاحتجاجية الكبيرة والصغيرة على حد سواء. نشهد في الأشهر اللاحقة ثورة تشرين بعض مظاهر الانكفاء الإعلامي عن تغطية حيثيات الاحتجاجات اللبنانية وتطوراتها، الأمر الذي انعكس في تصاعد واضح في الممارسات القمعية المباشرة وغير المباشرة، الرسمية وغير الرسمية، بعد زوال سلطة الإعلام في فضح ممارسات السلطة القمعية، كحجز حرية الناشطين واستدعائهم، في بعض الأحيان، على خلفية قضايا تافهة وملفقة غالبا، إلى تصاعد عنف المنظومة الأمنية والعسكرية النظامية بالضرب المباشر والعنيف، وصولا إلى إطلاق الرصاص على المتظاهرين، والذي أدى، في أحد تجلياته، إلى قتل عنصر من عناصر المنظومة الأمنية من عنصر آخر عن طريق الخطأ، ومروراً بصمت القوى الأمنية على عنف زعران الأحزاب والقوى وتعدّياتهم تجاه المتظاهرين في أكثر من موقع وأكثر من حالة.

وكأننا أمام تحوّل ملموس في بنية النظام والمنظومة اللبنانية من الناحية الأمنية، أي من بنية تدَعي الحرية والحق في التعبير والاحتجاج، وتراعيها ولو شكليا، إلى بنية تقوّض الحقوق وتحاصرها وتقمعها بفجاجة صريحة وصادمة لكثيرين من دون أي مواربة، وكأننا أمام مشاهد تبث من دول عربية أخرى، مشهود لأنظمتها بسلوكها القمعي والاستبدادي. وعليه، انعكس هذا الوضع على معنويات الحركة الاحتجاجية اللبنانية، وبالتحديد على مظاهرها الاحتجاجية، من حيث الكم والتواتر والحجم، نتيجة تصاعد مخاوف جزء كبير من جمهورها. وبحكم الخشية من تنامي القمع، وتحوّله إلى مشاهد أكثر إجرامية، خصوصا والجميع يعلم دور بعض مكونات المنظومة الطائفية اللبنانية في قمع شعوب مجاورة للبنان وقتلها، وتبعا للخوف من تدهور الأوضاع العامة بسبل عربية أخرى. ولكن المنظومة الطائفية لم تتمكّن، حتى اللحظة، من تقويض نتائج الحركة الاحتجاجية البنيوية التي نثرت بذورها بين جميع مكونات المجتمع اللبناني، ولا سيما بما يخص تنامي الوعي الوطني وانحسار الوعي الطائفي، وهو ما تجلّى في نتائج الانتخابات الطلابية داخل غالبية الجامعات اللبنانية التي أسفرت عن انتصارات الكتل الطلابية العلمانية الثورية على حساب الكتل التي تمثل المنظومة الطائفية المسيطرة فرديا وجماعيا، كما تمظهرت في احتجاجات طرابلس التي جذبت قلوب وعقول جزء مهم من المجتمع اللبناني وحماسته ومؤازرته، بغض النظر عن تموضعه الجغرافي وانتمائه الطائفي، وعلى الرغم من شبه القطيعة الإعلامية عن تغطية التحركات الاحتجاجية الحاصلة، وفي ظل الانتشار الأمني الكثيف في مختلف المدن والبلدات اللبنانية، والذي عمل على إعاقة تواصل ناشطي الاحتجاج ومؤيديه ميدانيا، في طرابلس تحديدا، وفي أي بقعة لبنانية أخرى.

> ما أنجزه الشارع اللبناني تطوّر مهم وملموس على أكثر من صعيد، وإنْ لم ينسحب ليطاول تحقيق تطورات ملموسة

لذلك لا بد من البناء على تنامي الوعي الوطني بخطوات حثيثة، تنجّز هذه المهمة وتحضنها أمام هجمات المنظومة الطائفية المسيطرة المتوالية والدورية، عبر انتهاج وسائل نضالية عابرة للطوائف والمناطق، تستهدف رموز النظام، بغض النظر عن المنطقة والطائفة. وهناك حاجة للعمل على إنجاز برنامج ثوري سياسي واقتصادي واجتماعي يناقض برنامج القوى الطائفية المسيطرة شكلا ومضمونا، بعد سنوات من ثبوت فشل الأخير ودوره التدميري. وهو ما يتطلب تفنيد برنامج السلطة وتوجهاتها ومواصلة الخط التحريضي تجاهه، بل وتعزيزه. فما أنجزه الشارع اللبناني اليوم تطوّر مهم وملموس على أكثر من صعيد، وإنْ لم ينسحب ليطاول تحقيق تطورات ملموسة مادياً على مستوى تغير منظومة الحكم، لكنه مقدّمات ضرورية لإنجاز هذا التحوّل في قادم الأشهر. وعليه يجب تقديرها والاهتمام بها، والبناء عليها في المرحلة المقبلة، كما لا بد من صيانتها، فاحتمالات الردّة ما زالت قائمة وخطيرة، ولا سيما في ظل وضع إقليمي وعالمي يسعى إلى تأجيج الانتماءات ما قبل الوطنية، ويعمل على سحق بوادر الوعي الطبقي أينما كان، ويحدّ من دور الإعلام الرقابي، كي يمنح السلطات مساحة حرة لممارسة إجرامها وجبروتها واستبدادها على قوى الشارع الحية.

(كاتب فلسطيني)

الثورة السورية في عشريتها... حكام هزيلون لشعوب منكوبة

دلال البزري

تسمّرنا أمام التلفزيون أياماً وليالي وقت الثورة المصرية. وعندما سقط حسني مبارك، اتجهت أنظارنا نحو سورية. هل ممكن؟ هل تحصل الثورة هناك؟ هل يسقط بشار الأسد؟ كنا نتطلّع إلى هذا الشطر العربي الآخر بعين المتلهّف والجاهل، معتقدين، في مكان ما من إدراكنا، بأن سورية «تختلف». ليس فقط عن بقية العرب، إنما تختلف عنّا، نحن اللبنانيين، باعتبار نظامنا الفريد من نوعه، فيما نظامها الاستبدادي يحكمنا بـ«الوصاية». ولكننا أيضاً، استناداً إلى سقوط مبارك السريع، استسهلنا سقوط الأسد. نبكي حظنا اللبناني الذي أوقعنا بين رؤوس ديكتاتورية عديدة، بعدد طوائفنا: ويا ليته ديكتاتور واحد! فنلحّ على أصدقائنا السوريين: «هيا ماذا تنتظرون؟ متى تثورون؟». حتى انفجر ذاك البركان السوري، ومعه أول شعاراته: «الشعب السوري ما بينذلّ» (لا يُذلّ). وعندما رفعت الثورة لاءاتها الثلاث «لا للطائفية والعشائرية والتدخل الخارجي»، تعجّبنا بعض الشيء.

«لا للطائفية» أولاً: كيف تكون سورية طائفية؟ هي التي حكمها بعثيون علمانيون؟ ولو من باب مماشاة الشعارات العلمانية بأدنى ما تتطلبه الصورة الخارجية، وبأقصى ما يمكنه أن يعطي على الطغيان، وعلى وصايتها على لبنان، حيث أمعن حكامها في توثيق الأطر الطائفية، أكثر مما هي موثّقة، فنحن اللبنانيين أوْلى بمحاربة الطائفية، نظامنا العريق طبعاً فهمنا، لاحقاً، أن الطلاء العلماني كان هزيلاً ضئيلاً. تلفّسه السوريون بمجرّد العيش في سورية. وما إن انطلقت الألسن بالصراخ إثر الثورة، حتى فاضت النصوص والشهادات الجديدة، وخرجت القديمة منها من أسوار المكتبات المغلقة.

الثانية، «لا للعسكرة»، لا حاجة للمقارنة. تعسكرنا من عقود سبقت الثورة السورية. بحرب أهلية، بمليشيات طائفية تقرّر إبقاء وجودها بعد نهاية هذه الحرب، واحدة بسلاحها الشرعي، والأخريات من دون سلاح. لكن بـ«روح» مليشياوية عالية. ثم سلاح «فردي»، غير منظّم غير «الشرعي». لكن العسكرة التي تجبّتها الثورة السورية أتت بالجديد منها، بعد إسرائيل وقوات الأسد الرسمية، تعسكرت سورية بجيوش روسية وتركية وأميركية، وبمليشيات إيرانية أبرعها حزب الله اللبناني. والأخيرة، أي المليشيات، جديدة على لغة الاحتلالات. نشأت عن محاربة الاحتلال. وهي اليوم تتدثر ببذلات المحتلين. وهنا تنقلب الآية ظاهرياً: إذ تبدو العسكرة في سورية أكثر وضوحاً وتعقيداً في أن من العسكرة اللبنانية، يخال إليك أن جيوشاً ومصالح غائبة عن الصراع الدائر في لبنان. ومع قليل من التمعّن، سوف تلاحظ أن اساطيل وصواريخ وربما أيضاً قنابل نووية. تدير مفاصل هذا الصراع. كما في سورية. وغالباً بالتناغم مع ما يحصل في لبنان وسورية من تبدّلات، ولو طفيفة، لموازين القوى.

اللاء الثالثة، «لا التدخل الأجنبي»، هي أيضاً من ملعب الإقنعة: في لبنان اللعبة الخارجية مكشوفة، والتدخل الأجنبي لا ينفيه أحدٌ من المتعاملين معه. فيما سورية الأسد استطاعت أن تقنعنا جميعاً، سوريين ولبنانيين، بأن الأسد هو حامي حمى قلعتيه، السورية واللبنانية. مع اعتقاد لبناني بأن انسحاب الجيش السوري، قبل ست سنوات من اندلاع الثورة، سوف يحرّر لبنان من تبعية، ويقلّل من عدد المتدخلين في شؤوننا، أو يكشفنا على تدخلات أخرى. وهذا شعار رفعه حزب الله لمرحلة ما بعد انسحاب الجيش السوري من لبنان، معدّاً نفسه لوراثة الهيمنة الأسدية، وبـ«كفاءة» عالية، حتى هذه اللحظة.

وكأن من سذاجة بعضنا، ربما ملأ من الطوائف «التوافقية، الديموقراطية»، أو كفراً بها: من أن تفخيخ السياسة بالمراوغة وانتحال الشخصية والكذب والتضليل، لا تصدر عن ديكتاتور وارث، تسلّطه على المكشوف، وأن هذه صفات الساسة اللبنانيين، أو «النخبة» اللبنانية. لكن بشار الأسد نجح في إسقاط اللاءات الثلاث باشدّ ما يمكن للبشر اختراعه من سُبل. وهنا لا اتكلم عن إجرامه البواح. وهذه صفة كان السبّاق إليها، بل نموذجاً يُحتذى. كان يختلف عنه زعماء الطوائف اللبنانيون، ولكنهم تمكنوا، في الآونة الأخيرة، من اللحاق به. أولئك الزعماء لم يعودوا يتوانون عن أخذ اللبنانيين إلى الموت، بصفته «قدراً» عند وزير، أو حادثة عابرة لا معنى لها عند آخر («قتلتُ رجلين...» قال الوزير للمذيع على الشاشة). هذا إذا تكلموا. وإذا صمتوا، مارسوا القتل عمداً، أو جالسين في الزاوية، يسبحون في بحر صراعاتهم الخاصة لنيل غنيمة مما تبقى من موارد لبنان. وعند الاثنين، السوري واللبناني، لصوص المساعدات الإنسانية، يعيثون فساداً في الأرض.

على صعيد الأشخاص والأمكنة الآن، كشفت الثورة عن الشعب السوري بأكمله، بقراه ومدنه وجباله ووديانه. وكشفت عن مجموعات، أشهرها التنسيقيات، هي اﻹبنة لحظة ثورية بامتياز. لم تعش، ولكنها صارت إرثاً لا يُبدّد. كشفت عن صفة العالمية. بعضها الآخر سطع نجمه ثم خبا. ومصائرهم تُروى، سيَر حياة صاخبة، وأفراد وأيقونات، غاب بعضها، وبعض آخر ينتظر الموت ليكرّس في المقابل، تعرّض اللبنانيون لأقدار مختلفة، تأخروا مع ثورة 17 تشرين. ولكن لم تبرز من بينهم مجموعات بعينها. ولا لعب المثقفون من بينهم الدور المطلوب منهم تقليدياً، الطاعنون في السن، كما الشباب، وعددهم أقل، تساوت درجة ادوارهم. بعضهم عوّض عن ضآلة الدور في ميدان الشاشة الصغيرة. وهذه من عيوب الإعلام اللبناني المرئي، «الحرّ، المتعدّد»، حاجب الوجوه، من دون عقولها، أو حتى عقولها الخلفية.

والأهم من ذلك أن الردّ على الثورة بالمجازر أخرج السوريين عُنوة من بلادهم، ووزّعهم على نواحي المعمورة، فكانت الفرصة لعديدين منهم أن ينطلقوا، ويضحّوا على الثورة تاريخاً ودروساً، ويستمدوا من ثقافة البلد المضيف ما في وسعهم أن يتعلموه. في الضفة اللبنانية، يصعب أن تجد مثقفاً خرج من بلاده بعد ثورة 17 تشرين. وإذا قابلتَ رغبته للهروب من بلده، فليس أمامه سبل هينة، أو جماعية، في هذه الأوقات بالذات. وعلى كل حال، أي مواطن لبناني طافش من بلاده سوف يسمى «مهاجراً»، فيما السوري لن يكون سوى «مُنْفي». وكان التسميتين تشيران إلى مستقبل العلاقة مع الوطن الأم. المنفي لن يعود إليها، فيما المهاجر قد يعود.

> عُجنَ السوريون واللبنانيون، ومعهم الفلسطينيون، في عجينة واحدة، عنوانها الخراب والفقر والتشرّد والغربة والوباء والموت

مشتركات أيضاً: الصراع المذهبي هنا ذبح الثورة السورية. الأكثر توافقاً مع الواقع اصوليتان، الشيعية والسنّية. ولكليهما داعمون خارجيون، إقليميون، مع فرق بين الإيراني والتركي، يتفوق الأول على الثاني في مناخ كثيرة. مع سؤال: هل كان يمكن توقع أن يكون الردّ على تدخل مليشيات مذهبية رداً «علمانياً»؟ وليس «فزعة» لنصرة «أهل السنة» بوجه المليشيات الشيعية؟ توّجَ المشاعر السنّية اللبنانية ما يغري جماعاتها للانضمام إلى المجموعات السنّية المختلفة، أو على الأقل استبطان طرقها وفكرها.

آخر المشتركات هم الفلسطينيون. السوريون من بينهم وجدوا فجاة أنفسهم في مخيمات الفلسطينيين اللبنانية. البلدة الفلسطينية الرمز، اليرموك، ولطالما احتبت سورية، حوصرت وجوّعت وفُرّقت من أهلها، وخرج جلّهم إلى لبنان، حيث لم يجدوا لاستقبالهم غير أندادهم، من لاجئي 1948 الفلسطينيين. وأملهم بالعودة إلى الديار التي عاملتهم معاملة العروبة في بداية عهدها يقلّ عن أمل السوريين أنفسهم.

وبنتيجة ذلك كله، عُجنَ السوريون واللبنانيون، ومعهم الفلسطينيون، في عجينة واحدة، عنوانها الخراب والفقر والتشرّد والغربة والوباء والموت... لن تنتهي سورية عند هذا الحدّ من التشابك مع لبنان. ثورتها مهزومة الآن، مثلها مثل اللبنانية. لكن أعداءها لم ينتصروا، على الرغم من قرارات الموت التي في حوزتهم. يتفنّنون بها ويبالغون بما يكفي لإهلاكهم. ليصبحوا حكاماً هزليين لشعوب منكوبة.

(كاتبة لبنانية)

السم الذي دُس لقيس سعيد

ياسر أبو هلالة

أحسن الرئيس التونسي، قيس سعيد، في تفسير معنى التسميم في اتصال عبد الفتاح السيسي معه، وقد هنّأه الأخير بنجاته من محاولة اغتياله بالسم، فبحسب ما نقل موقع الرئاسة عن حديث الرئيسين، فإن «السموم الزعاف هي التي تستهدف الشعوب والدول قبل أن تستهدف الأشخاص والقيادات». طبعاً، لم ترد الرئاسة التونسية لا على كلام النيابة العامة التي نفت وجود سم في المظروف، ولا قدّمت للرأي العام التقرير الطبي للمستشارة نادية عكاشة التي قال بيان الرئاسة إنها أصيبت بنقصان كبير في البصر بعد فتح المظروف، ولم تجب الرئاسة عن أسئلة بديهية سألتها الصحافة: هل يعقل أن تتشغل المستشارة الأولى للرئيس بفتح مظاريف البريد؟ هل يمكن أن تفتح بريداً مجهول المصدر؟ في حال تأثر بصرها، كيف اهتدت إلى ماكنة إتلاف الورق؟ ولماذا أتلفت المظروف المشبوه؟

في الواقع، ما حدث في تونس يشكل ذروة تسميم السياسة في البلاد، التي اجتمعت عليها كوارث تتطلّب أقصى درجات المسؤولية، سواء جائحة كورونا أم الأزمة الاقتصادية، أم الاستقطاب السياسي.. بدلاً من أن يرتقي الرئيس إلى مستوى المسؤولية، ويكون أباً جامعاً للتونسيين، انشغل بشكل شعبوي فجّ في صناعة خصوم، وانخرط في لعبة الاستقطاب، متحالفاً مع عبير موسي أسوأ رموز حقبة بن علي، ففي اليوم الذي استهدفت فيه مجلس النواب باستخدام مكبرات الصوت لتخريب جلسة النواب، تجول سعيّد مساء في شارع الحبيب بورقيبة في العاصمة، ليستمع إلى خطابات مناصريه بحل مجلس الشعب، ولم يصدر عنه دفاع عن المؤسسة الدستورية الأولى في البلاد، بل بدا متورطاً في التآمر عليها. فموقع الرئاسة بث الهتافات «العفوية» التي تُطالب بإسقاط البرلمان. وعندما زار رئيس الحكومة وزير الداخلية، بثت محاضرة طويلة للرئيس، ولم ينقل الموقع كلمة واحدة لرئيس الوزراء، الذي اختاره سعيّد نفسه، وأخذ ثقة مجلس الشعب، ولم يعط الرئيس وزناً لثقته برئيس الحكومة ولا لثقة مجلس الشعب به.

لا يحتاج سعيّد إلى هذا كله لبناء إرثه، وإنقاذ تونس. لقد عقد المؤمنون بالربيع العربي آمالهم عليه في حماية النموذج العربي الوحيد للتحوّل الديمقراطي، فقد تمكّن من هزيمة شعبوي آخر يمثل الثورة المضادة بوضوح، وتحالفت كل قوى الثورة لدعمه. لم تكتمل الفرحة، وخلال فترة بسيطة دسّ له السم الذي تحدث عنه. وحوّله إلى زعيم شعبوي يهدّد بناء الدولة والمجتمع، فلا يقيم وزناً للأحزاب التي تشكل عماد الحياة السياسية، ويستخف بمجلس النواب الذي يعتبر أهم المؤسسات المنتخبة في الدولة.

يستطيع قيس سعيد أن يتناول الترياق، وينجو من السم عندما يدرك أي قيمةٍ تمثلها تونس، وأي قيمةٍ يمثلها نظامها في وجدان العرب وفي عيون العالم. عليه أن يدرك أن شعبوياً، مثل خليفة حفتر، هُزم بعد أن دمر ليبيا وكلفها دماءً غالية، وأن المزاج العالمي نافر من الشعبوية التي جسّدها ترامب أسوأ تجسيد. هل شاهد هجوم ترامب على مجلس النواب الأميركي وأراد تقليده؟ ألم يشاهد النهاية؟

أين قيس سعيد من الباجي قايد السبسي الذي لم يكن من تيار الثورة كان رجل دولة من النظام السابق، لكنه تمكّن من بناء تحالف تاريخي مع حركة النهضة، صمدت فيه تونس أمام أمواج الثورة المضادّة. تمكن السبسي من رأب الصدع الذي قسم المجتمع التونسي. في المقابل، أعاد قيس سعيد بعد أن دسّ له السم الصدع مجدداً، في ظروف مأساوية تمر بها البلاد، إذ اجتمعت عليها جائحة كورونا مع أزمات سياسية واقتصادية.

أغرب ما في سلوك قيس سعيد أنه أستاذ قانون دستوري، فيما لا يلتزم بالدستور التونسي الذي وضّح صلاحيات رؤساء الجمهورية والحكومة ومجلس النواب. ومع أن النواب قدّموا تنازلاتٍ غير مسبوقة له، إلا أنه استمرأ لعبة تهميش المجلس والقفز عليه، وكأنه مجلس مفروض من قوة احتلال، وليس منتخباً من الأصوات نفسها التي انتخبت الرئيس.

محزنٌ ما تتعرّض له تونس التي قدمت العرب للعالم بأجمل صورة، وتستحق واقعاً أجمل مما هي عليه. ولا نملك غير الدعاء إلى الله أن يشفي سعيد من السموم التي تعرّض لها، وأن يعيد بصر مستشارته نادية عكاشة وبصيرتها، فترى الحق حقاً وتريه للرئيس، وتشير عليه باتباعه.

الربيع العربي والفضاء العمومي

محمد أحمد بنّيس

شكّل الفضاء العمومي، دائما، أولوية مركزية بالنسبة للدولة الوطنية العربية على اختلاف توجهاتها الإيديولوجية والسياسية. وظلت الهيمنة عليه في قلب الصراع السياسي على مدار عقود طويلة. ولم تكن هذه الدولة تسمح باحتلاله وتوظيف موارده خارج الدعاية لخياراتها وترويجه. وعلى الرغم من أن الأنظمة الحاكمة نجحت، بدرجات متفاوتة، في إقصاء الخطابات المضادّة لها من الفضاء العمومي، إلا أن تكاليف ذلك كانت باهظة، خصوصا بعد صعود خطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان في نهاية الثمانينيات، والانسداد السياسي العام، وإخفاق مشاريع التنمية، وغياب بوادر عقود اجتماعية جديدة تنقل شعوب المنطقة إلى طور الحرية والديمقراطية. وبقدر ما كانت تظهر أشكال جديدة للتعبئة الاجتماعية، كانت مخاوف هذه الأنظمة تتنامى من فقدان هيمنتها على الفضاء العمومي. وجاء الربيع العربي ليعلن نهاية هذه الهيمنة، بعد أن نجحت الأجيال الجديدة في تغيير المعادلة. وقد أفضى ذلك إلى ظهور أشكال احتجاجية جديدة تتوسّل بالسلمية، وتوظف الفورة التكنولوجية في التعبير عن تطلع فئات اجتماعية واسعة نحو التغيير المنشود، بعد إفلاس المؤسسات الوسيطة التقليدية التي بقيت مرتهنة لحسابات السلطة.

نجح الاحتجاج الجديد في قلب معادلة الفضاء العمومي في أسابيع قليلة، وحوّله إلى حلبةٍ مفتوحةٍ للنقاش العمومي، بشكل بدت معه السياسة العربية وكأنها تولد من جديد بعد سنوات طويلة من الاستبداد والقمع والاجتهاد في تجفيف منابع السياسة. وقد لا يكون مبالغة القول إن تجربة ميدان التحرير في القاهرة مثلت إحدى أكثر التجارب العالمية أهميةً في استعادة الفضاء العمومي من هيمنة السلطة، وتوظيف موارده بشكل سلمي ومتحضّر، والوعي بمخاطر الانجرار إلى العنف، هذا فضلا عما أتاحه هذا الفضاء من إمكانية لطارحة قضايا السلطة والثروة والهوية وغيرها.

وقد كشف ما حدث في ميدان التحرير، وميادين عربية أخرى، زيف الأسطوانة المشروخة للأنظمة بشأن «استغلال المتآمرين والمندسّين هذا الفضاء، لأجل تنفيذ أجندات خارجية معادية للوطن». فلم تعد الاحتجاجات تتوازى مع أعمال العنف والفوضى، كما كان يحدث قبل سنوات خلت، وأضحت السلمية عنوانا الأكثر دلالة. الأمر الذي سحب البساط من تحت هذه الأنظمة والقوى الاجتماعية المصطفة حولها. ولعل هذا ما يفسر، إلى حد كبير، حالة الرعب التي تعيشها، حاليا، من عودة الحرارة إلى الفضاء العمومي، على الرغم مما يقدمه لها محور الثورة المضادّة من دعم سياسي ومالي وإعلامي.

ومن المفارقات الجديرة بالملاحظة أن إخفاق معظم هذه الثورات في التحوّل السلمي والمتدرّج نحو الديمقراطية، لم يرافقه انكما

لنواصل تفاؤلنا بالثورات العربية

كمال عبد اللطيف

لا تخضع الثورات في التاريخ لحسابات المُبادرين بحصولها، ولا تخضع لحسابات القِوى السياسية التي تنتظر حصولها، وهي لا تُرَتِّب دائماً وِفْق خُطط القِوى الإقليمية والدولية. الثورات في التاريخ فعل مُرَكَّب ومُعَقَّد قبل حصوله وبعد حصوله. إنها فعل تحكمه حسابات مختلطة، حيث يُشبه دور الفاعل المُبَادِر، في بعض أوجُهه، فِعْل الفاعل المُلتَحِق بِحَدَثِها، أو فِعْل المُنتظِر جَنْيَ بعض ثمارها، وهذه المعطيات العامة تنطبق في مستويات منها مع ما حصل أمامنا في ثورات الربيع العربي التي نُواصِل إبراز أهميتها، وإبراز أهمية إكمالها روح ما انطلقت من أجله، نقل المجتمعات العربية من دولة الاستبداد إلى دولة القانون والمؤسسات.

كانت الأوضاع العربية في نهاية سنة 2010، أي قبل عقد كامل، قد دخلت نفقاً مظلماً، أطبق الاستبداد آليات ضَبطِه ومُراقبته لمختلف مَسَام الجسم السياسي العربي، وعَمَّ الفساد بجميع أشكاله وألوانه.. شاخت أنظمة عربية كثيرة، من دون أن تتمكّن من بناء تفاعل إيجابي مع التحولات التي ساهمت في صنعها، وأصبحت عاجزةً عن تطوير أدائها السياسي. استنفد الفكر السياسي الإصلاحي مفرداته، ولم تعد شعاراته تحمل الرَّنِين نفسه الذي ظلت تحمله طوال النصف الثاني من القرن الماضي. توقفت النخب عن بناء التصوُّرات والمواقف القادرة على تجاوز الأبواب الصدئة والمغلقة. أما الأحزاب السياسية فقد تحوَّل أغلبها إلى أحزاب لا تتجاوز شعاراتها الحدود التي رتَّبتْها الدولة المستبدة القائمة، عملاً بمبدأ أنه لا بديل في زمن بناء مجتمعات الاستقلال عن نظام سياسي مُمَاثِل لما هو سائد.

تفاقم الاستبداد والفساد، ولم تستطع الدولة الجديدة في أغلب البلدان العربية لا تحديث المجتمع ولا تحقيق التنمية، ولا بناء مشروع سياسي ديمقراطي يسمح بالتداول على السلطة. استمر الحال على ما هو عليه طوال سنوات النصف الثاني من القرن العشرين. ظلت أغلب المجتمعات العربية تَكْتَوِي بنيران الاستبداد والفساد، إضافة إلى تبعيتها وعدم قدرتها على التخلص من الأساليب التي ظل يمارسها الغرب الاستعماري، على تضاريس السياسة والاقتصاد والثقافة واللغة في مستعمراته القديمة، من دون أن تتمكَّن هذه الأخيرة من إعادة بناء ذاتها، في ضوء تطلُّعات وشعارات الحرية والتحرّر والتقدم.

نظرنا إلى الثورات العربية في تونس ومصر باعتبارها نتيجة طبيعية لمظاهر الضغط والتسلط السائدين.. واعتبرنا أن كل ما حصل يستجيب للطموحات المرتبطة بالشروط السياسية العامة في البلدين، النظام البوليسي المستبد في تونس، وحكم العسكر في مصر الذي تخلّى عن شعارات الثورة الناصرية، وبدأ يفكر في التوريث من دون خجل، مثلما حصل في سورية وكان من المنتظر حصوله أيضاً، في ليبيا واليمن وباقي الجمهوريات العربية.. تلاحقت معالم انتفاضات وانفجارات أقطار عربية أخرى، فشملت رياح الثورات والانتفاضات، طوال سنوات العقد الثاني من الألفية الجديدة في خطوة ثانية، المغرب والبحرين والأردن، ثم اليمن وليبيا وسورية. وهكذا تحول العالم العربي، خلال سنوات قليلة، إلى بؤرة مشتعلة من الشباب والنساء والشيوخ، فتحوّل الغليان الثوري في قلبها إلى فِعْلٍ تاريخي مُتعدِّدِ الأبعاد.

ضاقت بعض الأنظمة العربية التي تُمَاثِل أحوالُها أحوالَ المجتمعات المنتفضة، فانخرطت في التصدِّي لكل ما يقع على مرأى ومسمع منها، مستعينةً في ذلك بالقِوى الإقليمية والدولية، المتربصة بدوائر القرار في المشرق والمغرب العربيين وفي الخليج العربي، الأمر الذي نَتَج عنه بروز ثورات مضادّة، قادتها بعض الأنظمة بهدف محاصرة عدوى مواصلة تعميم رياح الثورات.. تصدّت للحراك الاجتماعي المتواصل في الأقطار التي لم تتمكّن من بناء خطوات الـلَّاعَوْدة إلى الميادين، بعد إسقاطها رؤوس الأنظمة السياسية السائدة، على شاكلة ما تَـمَّ في اليمن وليبيا وسورية، فأصبحنا أمام مستنقعات وحروب بالوكالة، فاختلطت الأمور وازدادت تعقيداً، بفعل عجز الحراك الاجتماعي عن بناء القِوى القادرة على رسم معالم ما بعد إسقاط أنظمة الفساد. وشكَّلت الثورات المضادّة حَجَرَ عَثْرَة أمام إمكانية تصاعد الفعل الثوري في المجتمعات العربية.

> لم تستطع الدولة الجديدة في أغلب البلدان العربية، لا تحديث المجتمع ولا تحقيق التنمية، ولا بناء مشروع سياسي ديمقراطي

تواصلت الثورات على الرغم من العثرات والاختناقات الحاصلة في كل من اليمن وليبيا وسورية، تواصلت بعد ذلك، في السودان والجزائر ولبنان، وبعد ما يقرب من عشر سنوات على اشتعال شراراتها الأولى، ما تزال حاجتنا إليها قائمة، فالأحوال السياسية العربية اليوم تدعو إلى ضرورة استئناف الحراك الاجتماعي الثوري، في ضوء دروس وتجارب الصيغة الأولى للربيع العربي.. وهناك علاماتٌ كثيرة تشير إلى تردِّي الأوضاع العربية، من قَبِيل العربدة الإسرائيلية المدعومة بالخيارات الصهيونية والعنصرية التي ترى في الراهن العربي الفرصة المناسبة لمزيدٍ من توسيع سياساتها، في الاستيطان والضَّم، وفي مزيد من اختراق الجغرافية العربية من المحيط إلى الخليج.

ازدادت درجات العنف والغطرسة الصهيونية بسبب الوضع الفلسطيني العام، وبحكم الآثار المترتِّبة على الأزمة الصحية العالمية، وكذلك بفعل احتدام التنافس الدولي والإقليمي على العالم العربي، وعدم قدرة الأنظمة العربية على وَقْف حالة الذهول التي جعلتها لا تنتبه إلى ما يجري أمامها.. فأصبحنا اليوم أمام منحدرٍ بلا قرار.. مُنحدَر يغلي بالاحتجاجات المخنوقة والمختنقة والمؤجلة، تحت ضغط إكراهات كل ما أشرنا إليه. أما الاحتجاجات الناشئة اليوم مجدّداً، في بعض بلدان الثورات العربية، من قَبِيل ما يقع اليوم بصورة متقطعة في تونس ومصر والمغرب، فإنها تدعونا، مرة أخرى، إلى استئناف الفعل الثوري، أي إلى مزيدٍ من العمل المناهض والمقاوم للسياسات الجارية، حيث يتم التخلي عن كثير من الطموحات التاريخية العربية، وحيث يصبح التطبيع عنواناً لصفقاتٍ لا علاقة لها بالمشروع التحرّري الفلسطيني والعربي، وذلك تحت تأثير الأوضاع التي ذكرنا بعضَها.. فهل يستعيد الفعل الثوري العربي مَضَاءَه مجدّداً لمواجهة حالة الذهول القائمة؟

(كاتب وأكاديمي مغربي)

سرقوا ماضينا وحاضرنا... ماذا عن المستقبل؟

حلمي الأسمر

ما نعرفه من تاريخنا الحقيقي قليل جداً، فقد تعهدت مناهجنا التي ندرّسها لطلابنا بتشويه ذاكرتنا الجمعية، خصوصاً حين يتعلق الأمر بتاريخ الأتراك في بلادنا.

من المواقف بالغة الدلالة على عظم الدولة العثمانية المدنية ما يذكره أورخان محمد علي في كتابه اللطيف «روائع من التاريخ العثماني»، حين علم السلطان، سليم الأول، أن الأقليات غير المسلمة الموجودة في إسطنبول، من الأرمن والروم واليهود، بدأت تتسبب في بعض المشكلات للدولة العثمانية، وفي إثارة بعض القلاقل، غضب لذلك غضباً شديداً، وأعطى قراراً بأن على هذه الأقليات غير المسلمة اعتناق الدين الإسلامي، ومن يرفض ذلك ضرب عنقه.

بلغ هذا الخبر شيخ الإسلام، زمبيلي علي مالي أفندي، وكان من كبار علماء عصره، فساءه ذلك جداً، لأن إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام يخالف تعاليم الإسلام، لأنه «لا إكراه في الدين». توجه الشيخ إلى قصر السلطان، وقال له: سمعت، أيها السلطان، أنك تريد أن تكره جميع الأقليات غير المسلمة على اعتناق الدين الإسلامي... كان السلطان لا يزال محتدّاً فقال: أجل، ما سمعته صحيح. وماذا في ذلك؟ فقال شيخ الإسلام: أيها السلطان، هذا مخالف للشرع، إذ لا إكراه في الدين، ثم إن جدكم محمد الفاتح، عندما فتح مدينة إسطنبول، اتبع الشرع الإسلامي، فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام، بل أعطى للجميع حرية العقيدة، فعليك باتباع الشرع الحنيف، واتباع عهد جدكم محمد الفاتح. قال السلطان سليم وحدّته تتصاعد: يا علي أفندي، لقد بدأت تتدخل في أمور الدولة.. ألا تخبرني إلى متى سينتهي تدخلك هذا؟ فيجيب الشيخ: إنني، أيها السلطان، أقوم بوظيفتي في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وليس لي من غرض آخر. وإذا لم ينته أجلي، فلن يستطيع أحد أن يسلبني روحي. فيقول السلطان: دع هذه الأمور لي، يا شيخ الإسلام. فيقول الشيخ: كلا أيها السلطان... من واجبي أن أرعى شؤون آخرتك أيضاً، وأن أجنّبك كل ما يفسد حياتك الأخروية. وهنا، يذعن السلطان سليم لرغبة شيخ الإسلام، وبقيت الأقليات غير المسلمة حرّة في عقائدها، وفي عباداتها، وفي محاكمها، ولم يمد أحد أصبع سوء إليها.

وفي هذا السياق، يقول الكاتب فهمي هويدي إن أوروبا لم تعرف التعدّدية السياسية إلا بعدما اقتبست من الدولة العثمانية نظام الملل الذي استلهمته من الشريعة الإسلامية، وحفظت به خصوصية أهل كل ملّة. إن الإسلام ما دخل بلداً إلا وأبقى على كل ما فيه من ديانات وملل ونحل، حتى اعتبر المجوس أهل ذمة. بينما ما دخل الأوروبيون بلداً وصل إليه الإسلام في قارّتهم إلا وأبادوا كل من خالفهم في الديانة. وما حدث في الأندلس وصقلية شاهد على ذلك. ومن المفارقات الدالّة، في هذا الصدد، أن اليهود حين طردهم الكاثوليك من الأندلس في القرن السادس عشر لم يجدوا ملاذاً يحتمون فيه سوى الدولة العثمانية التي كانت ترفع راية الشريعة.

أما الأوروبيون فلم يكتفوا بسرقة حاضر هذه الأمة، وخيراتها، واستقرارها، بل سرقوا تاريخها وعلومها، ونسبوا هذا كله لهم. في تسجيل مرئي شاع على مواقع التواصل الاجتماعي، يتحدّث المفكر وعالم اللسانيات وتاريخ الحضارة المغربي، أبوزيد المقرئ الإدريسي، عن العالم التركي فؤاد سيزكين، مبيناً دوره في إعادة الفضل في اكتشافات كثيرة موجودة في بحوث الغرب إلى أصلها العربي الذي حجبه الأوروبيون وانتحلوها، وهي معلوماتٌ قيمة يتعين على أبناء أمتنا معرفتها وتعليمها لأجيالهم الصاعدة المفتونين بحضارة الغرب.

> كانت الترجمة الغربية في عصر النهضة، ابتداء من إيطاليا إلى أميركا، «انتقائية، انتحالية، كتمانية»

عمل سيزكين 60 سنة مع فريق يتكون من عرب وألمان وأتراك، ونجح في الوصول إلى أكثر من 150 ألف كتاب، وتمكّن هو وفريقه من فحص أكثر من 40 ألف كتاب منها، وتمكّن من التعريف بالأصول العربية لما يزيد على 35 ألفاً. وعن طبيعة بحوث سزكين، يقول المقرئ الإدريسي: يأتي بالكتاب الأوروبي ثم يتتبع أصوله، فيجد أنه في الأصل مُترجم، وقد أزال المترجم اسم المؤلف العربي، وبدلاً من ذلك وضع المترجم اسمه! وقد شملت تلك المباحث علوماً في البصريات والطب والفلك والجراحة والزراعة وعلوم البحار والملاحة والطقس وكل شيء. وثمة ثلاث قواعد شابت الترجمة الغربية في عصر النهضة، في القرون، الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، ابتداء من إيطاليا إلى أميركا، حيث كانت ترجمة «انتقائية، انتحالية، كتمانية».

ويروي المحاضر المغربي قصة رجل قانوني كبير في المغرب، هو إدريس الضحاك، وكان الأمين العام للحكومة برتبة وزير. أرسله الملك الحسن الثاني في الثمانينات إلى أميركا، ليأخذ الفرصة الكاملة حتى ينفتح على القوانين الأميركية المتعلقة بالتجارة. وفي إحدى الولايات، تواصل مع مسؤولة رفيعة، جاءت به إلى الأرشيف، وأعطته المراجع وتركته يدرس، رجعت بعد مدة فوجدته قد وضع علاماتٍ على النصوص القانونية التي يريد نقلَها إلى المغرب، فأخذت تضحك، فشك في نفسه، فقالت له: كل هذه القوانين مأخوذ من الفقه المالكي الموجود عندكم من المغرب!

لقد سرق الغرب ماضينا، وحاضرنا، ونصب علينا حكاماً ولاؤهم له أكثر من أي شيء آخر، فماذا عن المستقبل؟

(كاتب من الأردن)

جمر تحت الرماد في السويداء

ميسون شقير

ربما نجح النظام السوري، بمساعدة إيران وروسيا، وبسبب تراجع الدور الأوروبي، وحتى العالمي، في منطقة الشرق الأوسط، في الإخماد المؤقت لثورة الحرية والكرامة التي بدأها الشباب السوري منذ عشر سنوات، وشكلت ملحمة حقيقية في إصرارها مدة تزيد عن عام على سلميتها، على الرغم من عنفٍ لم يعرفه التاريخ، مارسه النظام السوري على شعبه الأعزل الذي كان يقارع، بحناجره وصدوره العارية، أسوأ نظام قمعي مخابراتي بوليسي. نظام حوّل سورية، أم الحضارات، إلى دولة عسكرية مغلقة، تحكمها عصبة أمنية وديكتاتور يبني سلطته على الرعب ثم الرعب، ويضع لها دستورا واحدا هو الفساد ثم الفساد، على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والأخلاقية، ويحوّل جيشها، المشهود له، إلى جيش عقائدي مهمته فقط الحفاظ على استلام بيت الأسد السلطة، ويحوّل حزب البعث إلى مؤسسة مفرغة من كل محتوى أيديولوجي قومي أو اشتراكي، وإلى مؤسسة مخابراتية ببغاوية، تعزّز بماء خرم استبداده وتحميه.

وربما أيضا أن هذا النظام استطاع إقناع اليسار العربي، وبعضا من اليسار العالمي، بأنه نظام علماني يحمي الأقليات، ويواجه الإمبريالية العالمية، مثلما يواجه التطرّف الإسلامي، وأن كل تلك الملايين التي خرجت إلى شوارع سورية، ونادت بإسقاطه، هي ملايين إرهابية، وهو البطل الذي شرّد خمسة عشر مليون إرهابي سوري وقتل مليونين منهم، واعتقل مئات الآلاف، وغيّب عشرات الآلاف قسريا، وهدم أقدم مدن الأرض، ليحصل كما قال على سورية الجديدة أو سورية المتجانسة التي يموت ناسها الآن من الخذلان واليأس والفقر والقهر والعجز والبرد والمرض.

ربما يكون ذلك كله ممكنا، لكن ما لا يمكن أن يكون أن يقتنع أحد من السوريين الآن بأن هذا النظام قابل للحياة والاستمرار، وبأن حجّة حماية الأقليات التي لا يزال يتبجح بها كي يبرّر قصفه الشعب، حقيقية أو حتى مقبولة، خصوصا لدى سكان الجنوب السوري من محافظة السويداء، ذات الأغلبية الدرزية التي خرج مثقفوها ومحاموها ونخبتها منذ اليوم الأول، وصاحوا «واحد واحد واحد الشعب السوري واحد»، ورفعوا شعار سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين «الدين لله والوطن للجميع»، وفرز لها النظام أكثر عدد من مخابراته وشبّيحته لقمع حراكها النخبوي، والتي حاول بكل طرقه افتعال نزاع طائفي مع جارتها درعا أم الثورة ولم يفلح.

والسويداء، المدينة الصغيرة التي كان يسكنها قبل الثورة حوالي 400 ألف نسمة، استقبلت ما يزيد عن 600 ألف نازح جاؤوها من كل مناطق القُطر، ولم تُبن فيها خيمة لنازح، بل لا يزالوا يعيشون بين ناسها وفي بيوتهم. وهي المدينة الوحيدة التي رفض شبابها الالتحاق بالخدمة الإلزامية، كي لا يساهموا في قتل إخوانهم السوريين. وهذا ما جعل النظام يفقد عقله، ويحاول إجبار شباب المدينة على ذلك، لكن مجموعة رجال الكرامة، بقيادة الشيخ وحيد البلعوس، كانت له بالمرصاد، ورفضت أن يسحب أي شاب منها عنوة إلى الجيش، وكان رد النظام بتدبير تفجير لرجال الكرامة عام 2015 وقتل 42 منهم أمام مشفى السويداء، بمن فيهم الشيخ البلعوس. ولأن المحافظة لم تمتثل كما توقع، جعل في عام 2018 عناصر تنتمي لتنظيم الدولة الإسلامية داعش كان هو نقلها إلى حدود المحافظة، بحافلاته المكيفة، تقتحم الريف الشرقي من المدينة، وتقتل ما يزيد عن 300 مدني ليلا، بعد أن سحب كل قواته من القرى، وقطع الكهرباء والنت عن المدينة في الليلة نفسها.

بعد تلك المجزرة التي اقترفها النظام عن طريق عناصر «داعش» التابعين له، بدأ يتشكل لدى كل أبناء المحافظة غضب وسخط على نظام عاقبهم فقط لأنهم لم يرسلوا أبناءهم إلى جيشه، على الرغم من أن السويداء لم تكن فيها ثورة مسلحة على النظام، كما كان في باقي المناطق السورية.

> فرز النظام للسويداء أكثر عدد من مخابراته وشبّيحته لقمع حراكها النخبوي والتي حاول افتعال نزاع طائفي

واستمرارا لقرار النظام بمعاقبة المحافظة، افتعل في السنة الماضية اقتتالات بين عناصر مدعومة من الفرقة الرابعة في منطقة بصرى الشام وأحد رجال مخابراته في بلدة القريا، فتورّط بها رجال الكرامة في السويداء، وراح ضحيتها عديدون منهم.

اليوم، وبعد أن حاول رجال الكرامة وشيوخ الطائفة منع الشباب من الانضمام إلى الجيش الذي تسعى إليه إيران، وإلى الذهاب إلى ليبيا، اغتال النظام في يوم 24 من الشهر الماضي (يناير/كانون الثاني) رجلين من مشايخ الكرامة، وأهان رئيس الأمن العسكري في السويداء، العميد لؤي العلي، أحد شيوخ العقل فيها، وهو حكمت الجربوع، لأنه أراد إخراج مدني اعتقلته المخابرات السورية ظلما، الأمر الذي أجّج مشاعر الغضب لدى الناس، وجعلها تتوافد على منزل الشيخ، وتهدد وتتوعد وتحرق صور بشار الأسد في الشارع. قبل أن تصدر «الرئاسة الروحية للمسلمين الموحدين» بياناً حمّلتهُ رسائل تهدئة ووعيد بأن على «أي مسؤول، أياً كان موقعه، أن يعمل في سبيل الوطن والمواطنين، وأن يدرك أنه خادم للجماهير لا سيد عليها، وألا ينشر بشاعته وتسلطه، وألا تأخذه العزة بالإثم ليجد مستقبله المظلم بما جنت يداه على نفسه».

وعلى الرغم من أن النظام السوري قد أقال العميد لؤي العلي من رئاسة الأمن العسكري في السويداء، وأبدله بآخر، ومن أن الشيخ الجربوع كان طوال السنوات الماضية محسوبا على من يحاولون حماية المحافظة عن طريق إبقائه على علاقات طيبة مع النظام، إلا أن الغضب الشعبي في المحافظة المليئة بالاحتقان سيبقى مشتعلا، مثل كل محافظات سورية، كجمر تحت الرماد، فشباب السويداء الذين خرجوا في الصيف الماضي، وأحيوا الثورة السورية السلمية، لن يهدأوا.

(كاتبة سورية في مدريد)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads